الحنين إلى الوطن في شعر إيليا أبي ماضي
Patriotism in the poetry of Eliyah Abi Madi

* بخت زبير
** د.محمّد سليم هويد

Abstract

The world homeland has as varied and vast meanings as it is near and dear to everyone. Homeland for a bird means its nest, for a flower the homeland is its bough and a child considers his home as his homeland.Not only human beings but every living creature is ready to sacrifice everything for their homeland. The throne of the homeland is sweeter than the flowers of alien lands. The love and memories of homeland are inscribed on one's heart so much so that one can never forget his homeland. The love of homeland should be the most important purpose of one's life. Those who love their homeland do not need any reward for doing so. They are ready to sacrifice everything and anything they have for their homeland. It is permitted intoxication because of which everybody is ready to sacrifice even their lives. This is a god gifted and an in built passion which is there in everyone. According to a tradition of the holy Prophet PBUH the love of homeland is part of one's faith. This means one who is deprived of the love for homeland is deprived of faith. Many poets have expressed the love of homeland in their poetry and so did Ilia Abu Mai in his poetry.

Keywords: .....

خلق الله الإنسان، وجعله خليفته في الأرض، وكتب له العيش والحياة في الأرض، ففيها يولد وفيها يحيا وفيها يموت. وبما أن الله تعالى كتب له الحياة ومعيشتها في الأرض والوطن خلق له الأسباب للبقاء فيها مرتبطا بها ومحباًّلها، فهو الذي القى في قلبه حب الوطن، فهي فطرة الله التي فطر الناس عليها. لذا إذا غاب الإنسان عن الوطن والبلد أو سافر حاول الاسراع في الرجوع إليه، وإذا أجبر على الحياة خارج وطنه حنَ واشتاق إليه، وعبّر عن حنينه بكل الوسائل المتوفّرة لديه، ومن أعظم تلك الوسائل الشعر والقوافي، فلا أحد يملك من الشعور والعاطفة ما يملكه الشاعر. لذا يأتي هذا البحث ليلقي الضوء شعر إيليا أبي ماضي المتعلق بحنينه إلى وطنه "لبنان" بعد أن سافر إلى "أمريكا" معتمدا على النقاط التالية:

مقدمة موجزة عن الحنين، أسباب هجرة أهل لبنان، حياة إيليا أبي ماضي وهجرته، نماذج لحنينه للوطن وما توفيقي إلاّ بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

مقدّمة: إن الإنسان مربوط بالوطن ارتباطاً وثيقاً، وقد وصلنا كثيرٌ من النماذج عبر تاريخ الإنسانية ما تدل على هذا الارتباط والحبّ. ولعل من أقدم ما وصلنا في هذا الصدد ما روي عن أبي هريرة ﷺ أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: جاء ملك الموت إلى موسى عليه السلام فقال له: أجب ربك، قال:فلطم موسى عليه السلام عينه ففقأها، قال: فرجع الملك على الله تعالى فقال: إنك ارسلتني إلى عبد لك لا يريد الموت، وقد فقأ عيني، قال: فردّ الله إليه عينه وقال: ارجع إلى عبدي، فقل: الحياة تريد؟ فإن كنت تريد الحياة، فضع يدك على متن ثور فما توارت يدك في شعره، فإنك تعيش بها سنة، قال: ثم مه؟ قال: تموت، قال: فالآن من قريب، ربّ ادنني من الأرض المقدّسة رمية بحجر. قال رسول الله ﷺ: لو أني عنده لأريتكم قبره، إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر.1 هذا ما يؤكد أن

* محاضر بقسم اللغة العربية– جامعة إسلامية كالج–بشاور
** الأستاذ بقسم اللغة العربية , جامعة بشاور

الإنسان مطبوع بالتعلق بالمكان الذي نشأ فيه ودرج عليه أيام حياته الأولى، وقضى فيه سنوات طفولته وشبابه. والمتأمل في التاريخ يدرك أن هذه غريزة انسانية لا يمكن حصرها بالمكان والزمان، والارتباط بالمكان (مكان المولد، والنشأة والطفولة والشباب) ليس مشروطاً بالجمال أو اعتدال الجوّ الطبيعي أو وفرة الوسائل أو الخصبة، بل إن هذا الارتباط والتعلق سواء عند أهل الحضر وأهل البدو، يقول الجاحظ: " وأنت لو حوّلت ساكني الآجام إلى الفيافي، وساكني السهول ألى الجبال و..... لأذاب قلوبهم الهمّ، ولأتى عليهم فرط النزاع، قال الله تعالى: وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ.2 فقرن الضن بالأوطان إلى الضن بمنهج النفوس.3 لذا لا نستغرب تضحية النفس في سبيل الأرض، فإذا تأملنا هجرة المسلمين من مكة إلى المدينة لوجدنا أنها ما كانت إلا بعد ما أغلقت عليهم كل الطرق التي تحفظ لهم بقاءهم وبقاء عقيدتهم، ولذا احتمل المسلمون أنواع التعذيب والتوجيع والحصار ليبقوا في وطنهم، فلما لم يجدوا بداً اضطروا إلى الهجرة للحفاظ على دينهم وعقيدتهم ولتأسيس وطن جديد لهم. ومرض الصحابة المهاجرين إلى المدينة وحنينهم إلى مكة وبكاؤهم من الأخبار المشهورة في كتب الحديث والتاريخ.[4] كذلك عُدّ حب الوطن والتعلق به من علامات المروءة وكمال الإنسان، وشرف الخلق، فقد ذكر المسعودي" أن من علامات وفاء المرء ودوام العهد، الحنين إلى الإخوان والبكاء على الزمان الماضي، والشوق إلى المولد ومسقط الرأس.....[5]

أسباب هجرة أهل لبنان: ظل **الشرق** رازحاً تحت حكم العثمانيين أمدا طويلاً، وكان الحال في الشام وسوريا ولبنان أسوء من غيره في باقي البلاد العربية وذلك في المرحلة الأخيرة من الحكم العثماني[6].

فمن الأسباب التي أدت إلى هجرة أبناء بلاد سوريا ولبنان، الحكم السياسي وجوره وعصبيته والضرائب الباهظة التي كان يفرضها على المواطنين العرب، والأعمال الوحشية التي كان يرتكبها المواطنون الأتراك بدون رحمة أو انسانية أو شفقة، مما دفع النفوس التواقة إلى الحرية، أن تلتمس لأصواتها الحبيسة وأفكارها السجينة منبراً حراً، تعلن من فوقه ثورتها على الظالم والظالمين. وذلك يتضح فيما بعد في ثورة المهجريين على نظام الاستبداد الفاسد، وسيطرة رجال الدين المسيحي، واستغلال الاقطاعيين والدعوة إلى الوحدة الوطنية والقومية العربية ونبذ العصبيات الإقليمية والدينية والسياسية والغاء الفوارق الطبقية. الشاعر اللبناني الشهير شكر الله الجر[7] يبين السبب الكبير لهجرتهم، ويوضح بكل صراحة بأنهم لم يتركوا بلادهم لعدم محبتهم لها ولكنهم هاجروا لأن حريتهم قد فقدت داخل أراضيهم وأوطانهم، وأصبح العيش فيها عيباً وذلاً، وقد وصلوا إلى اليأس، يقول:

إيه لبنان يشهد اللهُ أنّا ما هجرناك عن قلى وصلابة[8]

ويقول إيليا أبو ماضي وهو يشرح سبب هجرتهم، بأنهم لم يهاجروا من بلادهم بأنهم ملوها ولا يحبونها، إنما هاجروا لأنهم أصحاب الهمم العالية، وأصحاب عزة ومجد لا يعرفون العيش في الشقاء والذل، هم الذين يغامرون بحياتهم في سبيل ذلك، وهذه فطرتهم ودأبهم من القديم. وهم النسور التي لا تعرف العيش إلا محلقين في الفضاء أحراراً بدون قيود، والنسور لا ترضى العيش في أقفاص الذهب فكيف نعيش نحن في سجون الطين، والحشرات هي التي ترضى بأن تعيش في الأرض تزحف وتحفر أما الباز والشاهين فهي لا تعرف إلا العيش بالحرية محلقين في الفضاء. يقول:

لبنان لا تعذل بنيك إذا هم ركبوا إلى العلياء كل سفين. 9

ومن أسباب الهجرة كذلك الفقر الذي سيطر على ربوع سوريا ولبنان، والإهمال الذي خيم على الزراعة والصناعة وشتى مرافق الحياة جعل سكان هذه المنطقة يشعرون بالحرمان الذي بسببه بدؤوا يهاجرون بحثا عن الحياة الكريمة التي تتوافر في ظلالها الحرية

والحفاظ على كرامة الانسان، ولكن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد، فظلم الأتراك وفرض الرقابة الشديدة جعل أهل هذه البلاد يرحبون بغزو "إبراهيم بن مُحَمَّد علي[10]" لبلادهم، ويساعدونه في ذلك حتى يخلصهم من هذا الظلم، إلا أن هذا الغزو لم يدم حيث اضطر إلى الرجوع من تركيا الذي كان قد وصل إليها وكاد أن يتوغل فيها، وذلك بعد أن أجبره الغرب على الرجوع، مما جعل بعض اللبنانيين يتبعونه إلى مصر، حيث الحياة الخالية من وطأة هذا السجن.[11]

يقول إيليا:

ولى أخوك فما أمضني النوى ولقد قدمت فما هششت إلى اللقا. [12]

تلك هي الحالة التي جعلت إيليا وأمثاله ترميهم فوق صخرة اليأس والحرمان، وأمواج الكآبة والأحزان تحيط بهم من جميع الجوانب، ووطنه قد استكان إلى الشقاء. لنستمع إليه في قصيدته "وداع وشكوى" وهو يصف حال وطنه بعد فساد النظام فيه. بأن الحر يضيق الآن في تلك البلاد، فالأدباء فيه في أصعب حالة والجهالة قد سيطرت عليه وعلى ربوعه، والعلم فيه قد فقد، أهله في حالة لاتسطيع الجماد أن يتحملها. أما الشعب فقد سيطر عليه التخاذل والتفرقة، فهم متمزقون متفرقون فيما بينهم. لايريدون أن يوحد الدين بينهم، وأخبثهم هم الذين يرتدون ملابس الذين والتقوى. أما الحكومة فهي عبارة عن مناوبة الأغبياء والحمقى على كرسي الحكم، ولذا يداهمنا الأعداء مراراً وكأنهم يرون العدالة في ارهاقنا وتعذيبنا، يقول:

وطن يضيق الحر ذرعا عنده وتراه بالأحرار ذرعا أضيقا. [13]

وصلت الديار إلى هذه الحال بحيث أصبحت خاوية كأنها لم تسكن، فسكانها فقدوا، وسيطرت الوحشة على المنازل التي كانت عامرة بأهلها، ويشتاق إيليا أن يعرف أسباب هذه الحالة السيئة، ولكن من يعرف يتمنى أن لم يعرف. سماء أهل البلاد أصبحت بغير كواكب ليهتدوا بها، وفي النهار المضيء لا يرون شيئا إلا جور الحكام والأمراء، ودخل الدخيل إلى البلد كأنه من أصل سكانه، اما سكان البلاد فلا نجد لهم أثرا. ويستمر إيليا مقرا بالخسف والذلة التي عليها قومه، لان الأعداء الدخلاء قد أماتوا ونسوا سنن العدل والقسط، وملأوا البلاد ظلما وجورا، وشعلوا في البلاد نارا تأكل الرعية وتستأصلهم، وكأن البلاد لم تغن بالأمس.

ومن الأسباب التي أدت إلى هجرة أهل سوريا ولبنان الصراع الطائفي. فمن المعلوم أن بلاد الشام كانت وما زالت تسكنها الطوائف المختلفة، فنجد فيها الطوائف المسلمة المشتملة على طائفة السنيين وطائفة الشيعة ومنهم طائفة النصيرية زطائفة الدروز. كما نجد الطوائف غير إسلامية مثل مسيحي الروم وطائفة الأرمن وطائفة الكاتوليك ثم طائفة اليهود الذين تمركزوا في دمشق. ولم يكن هناك تجانس بين هذه الفئات، وكان هناك عداء بينهم وبين الدولة العثمانية، وبالتالي كانت كل طائفة منهم تريد التوسع بحساب الأخرى وتحاول الاستقلال عن الدولة.[14] ولم يقف هذا الصراع عند هذا الحد، بل أخذ طابعا دينيا، فقد دعمت الدولة المسلمين على حساب النصارى، خاصة في الجيش والإدارة والقضاء، وهنا بدأت الطوائف النصرانية تدّعي أن الدولة تبالغ في تحقير النصارى.[15]

ومن تلك الأسباب كذلك أن تلك الدول كانت تعتمد على الزراعة بالأساليب اليدوية القديمة ثم على الري الطبيعي، وقد كان لزيادة السكان وقلة الرقعة الزراعية والحروب التي دخلتها الدولة العثمانية أثر كبير في هجرة سكان تلك البلاد. كذلك لم تكن لدى الدولة سياسة اقتصادية واضحة، ولذا مارست القسوة في جمع الضرائب ومعاملة الأهالي. منها كذلك انتشار الربا الفاحش في هذه البلاد وذلك بعد الاستدانة من المصارف الاجنبية والشركات.

ومن تلك الأسباب ما تتعلق بحالتهم الاجتماعية والنفسية كذلك، فهم من الفينقيين الذين لا يعرفون الاستقرار في مكان واحد، بل كانوا دائم الترحال والسفر. كذلك الارساليات التي دعمت الهجرة إلى بلادهم ثم الرسائل التي كانت ترسل من قبل المهجريين الذين هاجروا قديما، واخبارهم الناس عن حياتهم الجديدة وما فيها من الوسائل والمتعة...

حياة إيليا أبي الماضي وهجرته (موجزاً):

إيليا ضاهر أبو ماضي من مواليد سنة 1889م،[16] بقرية المحيدثة وهي قرية لبنانية تقع قرب بكفيا في قضاء المتن الشمالي، في أسرة فقيرة, وكانت مدرسة القرية أول بيت علم دخله ونال من علمه ماستطاع نيله.[17]

هجرته إلى الإسكندرية: في سنة 1902م حدثته نفسه بالهجرة إلى أمريكة لظروف سياسية واقتصادية، وقد ترك معظم أصحابه بلدهم وسافروا، فترك إيليا قريته متوجهاً أولاً إلى الإسكندرية.[18] حيث كان له عم يعمل في تجارة السجاير، فبدأ يعمل معه في التجارة نهاراً ويدرس ليلاً. قال أبو ماضي في ذلك:" وفي الإسكندرية تعاطيت بيع السجاير في النهار في متجر عمي، وفي الليل كنت أدرس النحو والصرف تارة على نفسي، وتارة في بعض الكتاتيب." وهكذا راح إيليا يحصل من العلم ما استطاع التحصيل، إلى أن كانت سنة 1912م، فأصدر ديوانه الأول بعنوان "تذكار الماضي".[19]

هجرته إلى أمريكا: إن الحياة في مصر لم تقدم لإيليا كل ما كان يصبوا إليه، ففي سنة 1912م يمم الولايات المتحدة،[20] التي جذبت الألوف من أبناء وطنه واستقر في مدينة سن سناتي إلى جانب أخيه مراد يعمل في التجارة ويملأ أوقات فراغه بالدرس والمطالعة ونظم الشعر، وفي سنة 1916م انتقل إلى نيويورك وإلى حياة الصحافة والأدب.[21]

أعماله الأدبية: لإيليا أبي ماضي عدة دواوين شعرية نشرت في حياته وبعد وفاته منها: تذكار الماضي والجداول والخمائل وتبر وتراب، وإلى جانب تلك الدواوين الضخمة قام الشاعر بأعمال أدبية جليلة أثناء قيامه في المهجر، ففي سنة 1916م بعد وصوله إلى نيويورك عهد إليه في تحرير مجلة "المجلة العربية" وفي سنة 1918م عهد إليه في تحرير مجلة "مرآة الغرب" لصاحبها نجيب دياب، وفي سنة 1929م أنشأ مجلة "السمير" وقد حولها سنة 1936م إلى جريدة يومية. وفي سنة 1920م اشترك في تأسيس "الرابطة القلمية" وكان شاعرها الفذ الذي غزا صيته العالمين القديم والجديد.[22]

شعره: " قد ردد اسم إيليا أبو ماضي على كل لسان، وغني بشعره في كل مكان، إن إيليا أبا ماضي حي بقصائده الرفيعة، وأدبه الإنساني، وموسيقاه الرائعة، وقصصه الجميلة، وتسلسل الحركة والصور في شعره تسلسلا عجيبا. إنه شاعر الصور، والتجارب الباطنة العميقة، والإيحاء الذاتي المؤثر".[23]

وكانت أنغامه عزاء المنكوبين، وطمأنينة الحائرين، وابتسامة في وجه الزمان إذا عبس، وأثبت كيان الفكر العربي في العالم الجديد.[24]

وإيليا أبو ماضي في شتى أطوار شعره وشتى مراحل حياته رجل التفاؤل، والدعوة إلى الحياة والطبيعة في إشراق وانفتاح قلما نجدهما عند غيره من شعراء الرومنسية الحديثة.[25] لقد عاش حياة مليئة بالآلام والشدائد إلا أنه أعطي ملكة قوية في التحمل عليها، وهي ملكة التفاؤل وحب الحياة، فقد عاش متفائلا يحب الحياة، لايعرف التشاؤم والضيق من الشدائد. ونشر التقارل والحيوية بأدبه وشعره.

وفاته: زار لبنان بعد 36 عاما قضاها في أمريكا. ثم عاد إلى نيويورك.[26] وفي سنة 1957م توفاه الله وهو لا يزال في أوج نشاطه الصحافي الشعري.[27]

نماذج لحنينه إلى الوطن:

لقد سافر إيليا من بلاده " لبنان ومصر " إلى بلاد نائية غريبة " أمريكا " وفطرة الإنسان أنه لا ينسى بلده الأصلي ومسقط رأسه ومسكن أقاربه وأصدقائه. ثم هو لم يهاجر طوعا وإنما أجبرته الظروف القاسية على الهجرة فهو إذاً

سيذكر بلاده التي لم يتركها من قلبه، ولذا وجدناه يكثر من ذكر البلاد التي عاشها قبل سفره ويحن إليها حنين العجوز إلى الشباب. فهو يرسل حبه وحنينه للبنان في قصائد شتى، فهو يرى لبنان أفضل بقاع الأرض على الاطلاق، ويرى ساكنيه أفضل سكان على وجه الأرض، وهو إن خيّر بين العيش في كيوان والعيش في لبنان، لهاجر إلى لبنان فهو يملك قلباً واحداً وهو الذي لا يحبّ إلا لبنان فقط. يقول في قصيدة "في سبيل الإصلاح " وهو يحي أرض لبنان:

حيا الصبا عني ربا لبنان حيث الهوى ومراتع الغزلان

ورعى المهيمن ساكنيه فإنهم في خير أرض، خيرة السكان

إلى أن قال:

لو أن في كيوان دار إقامتي لهجرت كيوانا إلى لبنان

قيدت قلبي في هواه فلم أعد أهوى السوى إذ ليس لي قلبان.[28]

وهو يصور عمق حبه وحنينه إلى موطنه لبنان فيطير بفكره في سماء الخيال فيسرد في قصيدة " الشاعر في السماء " ما فعله الله لإرضائه حيث رفعه من الغبراء إلى قمة السماء، وشاد له بيتاً جميلا فوق السموات، وجعل له كل ما يرضي أمثاله ،وليس هذا فحسب بل أعطاه السيطرة على الفضاء والشهب والنجوم، والظلمة والنور، والصباح والمساء، والغيوم والأمطار. يقول إيليا:

رآني الله ذات يوم في الأرض أبكي من الشقاء

فرق، والله ذو حنان على ذوي الضر والعناء. [29]

ولكنه مع ذلك كان حزينا كئيباً، فسأله الله تعالى عن سبب قلقه وحزنه مع أنه أعطاه ما لا يعطى أحداً فأجاب بأنه لا يريد ولا يحب العيش إلا في بلده بين أهله وأقرانه، وبين تلك الطبيعة الساحرة التي خلقت في بلده.

وهو يذكر لبنان–بلده–عندما يودع صديقا له يعود إلى لبنان، يقول بأن حب لبنان وحب أهل لبنان لا يضعف ولا يبلى وإن مر الدهور، وهو يحب صيف لبنان وشتاءها، وليلها ونهارها، وطبيعة لبنان هي التي تحافظ على الشباب من الهرم والكهولة، يقول في قصيدة " لبنان ‘‘:

اثنان أعيا الدهر إن يبليها لبنان والأمل الذي لذويه

نشتاقه والصيف فوق هضابه ونحبه والثلج في واديه. [30]

وفي قصيدة " يا رفاقي " يشتكي الشاعر مما أصابه في المهجر من الآلام بسبب البعد عن الوطن، ولا ينسى انتسابه إلى الشرق الذي قلبه ما زال معلقا هناك، وهو يتمنى أن يبصر وطنه قبل أن يصير ترابا، وأن طعام المهجر مهما كثيرا وشهيا إلا أنه يعالج جوعه، وأن مياهه لا تنهي عطشه، وأن ضوءه لا يخرجه من الضباب والظلمة، وأنه ليس مريضا ولكنه بعيدا عن الرفاق والأهالي، ولذا تمر السنوات تسعد الناس ولكن حزنه لا ينتهي، والذي يسأله عن أصله ومن أين هو؟ فاليعلموا أنه مثل الشمس الذي لاينسب إلا إلى الشرق، وهو في المهجر بالجسم ولكنه في لبنان بالروح تسكن وتتروح روحه هناك. وهو لا يطلب من الله إلا العودة إلى بلده قبل أن يصير تراباً. يقول:

جعت وخبز وفير في وطابي والسنا حولي، وروحي في ضباب

وشربت ماء عذبا سائغا وكأني لم أذق غير سراب. [31]

وفي قصيدة "وطن النجوم" يخاطب وطنه لبنان ويذكر سالف أيامه التي عاشها هناك، يذكر صباه وشبابه، وكيف كان يلعب في حقولها وأشجارها، وكيف كان يمشي غريراً في طينها ولايخاف ممن سيشاهده ويعاتبه. يقول:

وطن النجوم... أنا هنا حدق .... أتذكر من أنا؟

المحت في الماضي البعيد فتى غريرا أرعنا؟

....ويخوص في وحل الشتا متهللا متيمنا
لا يتقي شر العيون ولا يخاف الألسنا.[32]

ولنستمع إلى قصيدة " نفثة مصدور " وإلى شكواه وحنينه الذي يحن به إلى بلاده، إذ يقول بأن قلبه لا يحب سوى لبنان وأهلها، وإذا ضاقت بلاده فتضيق عليه كل بلاد الدنيا الواسعة، وهو يشبه حبه لبلده بعناد الزمان معه، فالبعد عن الديار يؤذيه مثل الزمان، فهو يطمع في العلا ولكن الزمان يبخل عليه هو يصوب كل سهم إلى قلبه، وكثر عليه خطوب الدهر وتزداد حتى نحلته تلك الخطوب فهو مثل طيفه، وهو لا يعرف إلى من سيشتكي، وهو يمدح قومه بأنهم لامثل لهم في الناس، ولشوقه إلى لقياهم يكاد يطير إليهم مع شوقه ولكنه محال. يقول:

سوى " لبنان " يمقته فؤادي وغير بنيه أمنعهم ودادي

بلاد الله واسعة ولكن تضيق لدي إن ضاقت بلادي. [33]

وهو لا ينسى بلاده وأهلها حتى في لحظات خالية. يقول في قصيدة " ولقد ذكرتك" وهو يخيل مستقبل قومه:

ولقد ذكرتك يا بلادي، بعدما ذهب الشباب ومرت الأعوام

فتمثلت تلك الربوع لناظري خربا عليها وحشة وظلام. [34]

وحبه وحنينه لا يختص " لبنان " فحسب، بل يتعدى إلى مصر الذي أصبح موطنه الثاني فهو قد هاجر إليها قبل هجرته إلى أمريكا. فهو يتذكر الأيام الجميلة التي قضاها في مصر، ولتذكرها لا يستطيع أن ينام ولا يخرج جسمه من الضعف. يقول في قصيدة " لقاء وفراق "':

أسلمت للسهد طرفي والضنى بدني إن الصبابة لا يرجى تلافيها

مرت ليال بنا ما كان أجملها! تمت فما شانها إلا تلاشيا. [35]

كما لا ينسى كل بلاد الشام فيحن إليها حنين الرضيع إلى أمه. ويبكي عليها مثل ما يبكي الإنسان على دياره خاصة بعدما يصيبها من الآلام والمصائب. وهو هنا يمدح أرض الشام بما ثبت في فضلها عند الأمم، فهي مهبط الوحي ومطلع الأنبياء، وهو يدعو لها بالسلام إلى الأبد، ويعتذر لتركه لتلك البلاد الساحرة، وبأنهم لم يهاجروا طوعاً إنما أجبرتهم تلك الأحوال القاسية. يقول في قصيدة " أنت " مخاطبا أرض الشام:

مقلة الشرق! كم عزيز علينا أن تكوني رمية الأقذاء. [36]

ولنستمع إلى تلك الأنشودة الرائعة التي يصف فيها حبه و حنينه إلى بلادالشام. يقول في قصيدة " يا بلادي " وهو يخاطب لبنان وسوريا:

مثلما يكمن اللظى في الرماد هكذا الحب كامن في فؤادي

لست مغرى بشادن أو شاد أنا صب متيم ببلادي.

يا بلادي عليك ألف تحيه.[37]

وفي قصيدة " يا جارتي " يأتي الشاعر بحوار بينه وبين جارته التي تسأله عن حزنه وبكائه وعدم خروجه من المنزل وعدم مشاركته الناس في الأفراح والمناسبات. وهو حوار يمثل تمثيلاً رائعاً لما يدور في جوارحه من حبٍ وحنينٍ لبلاده وأوطانه، يقول في آخر هذه القصيدة والحوار:

يا ليت شعري وهذى الحرب قائمة هل تنجلي ولنا في الشام إخوان؟

وهل تعود إلى لبنان بهجته وهل أعود وفي لبنان نيسان؟[38]

وفي قصيدة " السجينة " يشبه الشاعر نفسه بتلك الزهرة المقطوعة الذابلة التي تعدت عليها أيد الظلمة. فهو مثلها لأنه فد طرد من بستانه كذلك فيعيش بعيدا عن وطنه وأهله. يقول:

لعمرك ما حزني لمال فقدته ولا خان عهدي في الحياة حبيب

ولكنني أبكي وأندب زهرة جناها ولوع بالزهور لعوب. [39]

الهوامش والمصادر:

1:- البخاري، حديث رقم:1339، ومسلم، حديث رقم:2372.

2:- سورة النساء، الآية رقم: 66

3:- إيمان البقاعي، أحلى ما قيل في الوطن، د-ط 2006، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ص:05.

4:- صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم، د-ت، 2007م، وزارة الأقاف والشؤون الاسلامية- دولة قطر، ص:174.

5:- المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ط:4- 1981م، دار الأندلس- بيروت، 2\40

6:- صابر عبد الدائم، أدب المهجر،ط:1-1993م، دار المعارف- مصر،ص:25.

7:- هو شكر الله الجر :شاعر لبناني ، من قرية يحشوش. هاجر إلى البرازيل (1923 م) للتجارة مع أخيه "عقل" وانقطع إلى الصحافة (1930م) فأصدر مجلة الأندلس الجديدة" شهرية، ثم جريدة "الحرية" أسبوعية، إلى سنة م 1964 م، وعمل في تأسيس "العصبة الأندلسية وعاد إلى لبنان سنة 1964م، وتوفي في جبيل. (أنظر: الأعلام 171/3).

8:- صابر عبد الدائم ، المصدر السابق، ص:65. وبقية الأبيات هي:

إنما أصبح المقام بأرض الأرز للحرّ ذلة ومعابة

كيف لا يهجر الأبي مكانا ملأ اليأس جوه ورحابه.

9:- إيليا أبو ماضي، الأعمال الشعرية الكاملة، جمع وتقديم -د- عبد الكريم الأشتر، ط: 1 – 2008، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين –الكويت ص:805. والأبيات الباقية:

لم يهجروك ملالة لكنهم خلقوا لصيدِ اللؤلؤِ المكنون

ورثوا اقتحام البحر عن فينيقيا أم الثقافة مصدر التمدين

لما ولدتهم نسور حلقوا لا يقتنعون من العلا بدون

والنسر لا يرضى السجون وإن تكنج ذهبا فكيف محابس من طين

والأرض للحشرات تزحف فوقها والجو للبازي والشاهين. ج

10:- هو إبراهيم باشا بن مُحَمَّد علي باشا، قائد بعيد المطامع، من ولاة مصر. ولد في نصرتلي بالقرب من قولة، وقدم مصر مع طوسون بن مُحَمَّد علي سنة 1220هـ فتعلم بها، وأرسله أبوه مُحَمَّد علي سنة 1231هـ بحملة إلى الحجاز والنجد، ثم جعله قائدا للحملة المصرية في حرب المورة سنة 1239هـ، ثم سيره بجيشه إلى سوريا فانقادت له بلاد الشام. (أنظر: الأعلام، 70/1).

11:- مُحَمَّد علي سيد مُحَمَّد داوود، الاتجاهات الفنية في شعر إيليا أبو ماضي، ص: 113.

12:- إيليا أبو ماضي، المصدر السابق، ص:221. وباقي الأبيات هي:

أقبلت والدنيا إلي بغيضة هلا سبقت إلى أسبـاب الشـقاجج

حنقت بلا سبب علي وإنه سبب جدير عنده أن أحـــنقا

علقت أخي كف المنون وكدت أنج أسعى على آثاره لولا التـــقى

ما اشفقت نفسي علي وإنماج أشفقت أن أبكي الصديق المشفقا.

13:- إيليا أبو ماضي، المصدر السابق ، ص:282. وباقي الأبيات هي:

ما إن رأيت به أديبا موسرا فيما رأيت، ولا جهولا مملقا

مشت الجهالة فيه تسحب ذيلها تيها، وراح العلم يمشي مطرقا

أمسى وأمسى أهله في حالة لو أنها تعرو الجماد لأشفقاج

شعب كما شاء التخاذل والهوبج متفرق ويكاد أن يتمزقا

لا يرتضي دين الإله موفقاج بين القلوب، ويرتضيه مفرقا

كلف بأصحاب التعبد والتقى والشر ما بين التعبد والتقى

وحكومة ما إن تزحزح أحمقاج عن رأسها حتى تولى أحمقا

راحت تناصبنا العداء كأنما جئنا فريا أو ركبنا موبقا

وأبت سوى ارهاقنا فكأنماج كل العدالة عندها أن نرهقا.

14:- سعيد سعد الغامدي، موقف المعارضة في المشرق العربي، حكم السلطان عبد الحميد الثاني(الشام ومصر)، ط:1-1992م، مكتبة التوبة- الرياض، المملكة العربية السعودية. ص:44-45.

15:- نفس المصدر، ص:40.

16:- عيسى الناعوري، أدب المهجر ، ط:3 (د-ت) ، دار المعارف ، القاهرة ص: 364.

17:- حنا الفاخوري ، الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب الحديث) ط : 1 -1986م ، دار الجيل بيروت، ص: 595.

18:- عمر رضا كحالة ، معجم المؤلفين ، (د- ط) 1957م مؤسسة الرسالة ..... 416/1.

19:- حنا الفاخوري، المصدر السابق، ص : 595. ومُحَمَّد عبد المنعم الخفاجي، دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه، ط:1-1992، دار الجيل-بيروت، ص:368.

20:- عمر رضا كحالة ، المصدر السابق، ص 416، وحنا الفاخوري، المصدر السابق، ص : 595، والزركلي، الأعلام: 35/2.

21:- حنا الفاخوري، المصدر السابق، ص 595. ومُحَمَّد عبد المنعم الخفاجي، دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه، ص:368

22:- حنا الفاخوري ، الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب الحديث)، ص:595. ومُحَمَّد عبد المنعم الخفاجي، دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه، ص:368.

23:- مُحَمَّد عبد المنعم الخفاجي، المصدر السابق، ص:365.

24:- نفس المصدر.

25:- حنا الفاخوري، المصدر السابق ،ص 593.
26:- عمر رضا كحالة ، معجم المؤلفين، ص 416/1.
27:- حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب الحديث)، ص:595.
28:- نفس المصدر ، ص:191.
29:- إيليا أبو ماضي، الأعمال الشعرية الكاملة، ص:758. وباقي القصة:

وقال ليس التراب داراج — للشعر، فارجع إلى السماء
وشاد فوق السماك بيتيج — ومد ملكي على الفضاءج
فالتفت الشهب حول عرشي — وسار في طاعتي الضياء
وصرت لا ينطوي صباح — إلا بأمري ولا مساء
ولا تسوق الغيوم ريح — إلا ولي فوقها لواء
فالأمر بين النجوم أمريج — لي الحكم فيها ولي القضاء

ولكنه مازال كئيبا حزينا:

لكنني لم أزل حزينا — مكتئب الروح في العلاءج
فاستغرب الله كيف اشقج — في عالم الوحي والسناءج

فسأله الله عزوجل وقال له:

يا أيها الشاعر المعنى — حيرني داؤك العياء
هل تشتهي أن تكون طيرا — فقلت: كلا ولا غناء
هل تشتهي أن تكون نجما؟ج — أجبت كلا، ولا بهاءج
هل تبتغي المال؟ قلت كلا — ما كان من مطلبي الثراء
ولا قصورا، ولا رياضاج — ولا جنودا ولا إماء
وليس ما بي يا رب داءج — ولا احتياجي إلى دواء
ولا حنيني إلى القناني — ولا اشتياقي إلى الظباءج

فما ذا يريد الشاعر إذا:

فقال: يا شاعرا عجيبا — قل لي: إذن ما الذي تشاء؟
فقلت: يا رب فصل صيف — في أرض لبنان أو شتاءج
فإني ههنا غريبج — وليس في غربة هناء

ثم سأله الله عزوجل:

فإي شيء تشتاق فيه؟ج — فقلت: ما سرني وساء
تحن نفسي إلى السواقيج — إلى الأقاحي، إلى الشذاء
إلى الروابي تعرى وتكساج — إلى العصافير والغناء
إلى العناقيد والدوالي — والماء والنور والهواء. جججج

30:- إيليا أبو ماضي، الأعمال الشعرية الكاملة، ص:773. (ينظر كذلك: ص:907.) وباقي الأبيات هي:

وإذا تمد له ذكاء حبالها بقلائد العقيان تستغويه
وإذا تنقطه السماء عشية بالأنجم الزهراء تسترضيه
وإذا الصبايا في الحقول كزهرها يضحكن ضحكا لا تكلف فيه
هن اللواتي قد خلقن لي الهوى وستعينني السحر الذي أسقيه
هذا الذي صان الشباب من البلى وأبى على الأيام أن تطويه.

ويقول وهو يخاطب صديقه مغتبطا على ما سيحدث له غدا وما سيشاهده:

يا صاحبي يهنيك أنك في غد ستعانق الأحباب في ناديه
وتلذ بالأرواح تعبق بالشذا وتهزك الأنغام من شاديه
إن حدثوك عن النعيم فاطنبوا فاشتقته لا تنس أنك فيه.

31:- نفس المصدر ، ص:895.

ويخاطب السائل:

أيها السائل عني من أنا؟ أنا كالشمس إلى الشرق انتسابيج
أنا في نيويورك بالجسم وبال روح في الشرق على تلك الهضابج
رب هبني لبلادي عودة وليكن للغير في الأخرى ثوابي.

32:- إيليا أبو ماضي، الأعمال الشعرية الكاملة ، ص:849.

33:- نفس المصدر ، ص:1007. (ينظر كذلك: ص:1070، 1034، 1117.) وباقي الأبيات:

بلاد قد طبعت على هواها كما طبع الزمان على عناديج
لقد كثرت خطوب الدهر عندي ولم تبرح لدي على ازدياد
نحلت من الهموم فلو تراني لما ميزت طيفي من سوادي
شعوب لا تعد، ولا كقومي تساوي باعتقادهم اعتقاديج
يكاد الشوق ينقلني إليهم لو أن الشوق ينقل غير باد.

34:- إيليا أبو ماضي، الأعمال الشعرية الكاملة ، ص:1088.

35:- نفس المصدر، ص:155.

36:- إيليا أبو ماضي، الأعمال الشعرية الكاملة، ص: 340. وباقي الأبيات:

أرض آبائنا عليك سلام وسقى الله أنفس الآباء
ما هجرناك إذ هجرناك طوعا لا تظني العقوق في الأبناء
يسأم الخلد والحياة نعيم أفترضى الخلود في البأساء؟

37:- إيليا أبو ماضي، الأعمال الشعرية الكاملة، ص:467. وبعض أبيات تلك الأنشودة:

كل شيء في هذه الكائنات من جماد وعالم ونبات
وقديم وحاضر أو آت صائر للزوال أو للمات

غير شوقي إليك يا سوريه

أنت ما دمت في الحياة حياتي فإذا ما رجعت للظلمات

واستحالت جوارحي ذرات فلتقل كل ذرة من رفاتي

عاش لبنان، ولتعش سوريه

38:- نفس المصدر، ص:490.(ينظر كذلك: ص:797. ومن أبيات القصيدة:

فأسمع الطير تشدو في خمائله وأبصر الحقل فيه الشيح والبان؟

بني بلادي: وكم أدعوا أليس لكم كسائر الخلق أكباد وآذان؟

لا تضحكوا وبأرض الشام نائحة ولا تناموا وفي لبنان سهران.

39:- إيليا أبو ماضي، الأعمال الشعرية الكاملة، ص:563. ومن أبيات القصيدة:

أيا زهرة الوادي الكئيبة إنني حزين لما صرت إليه كئيب

وأكثر خوفي أن تظني بنى الورى سواء، وهم مثل النبات ضروب

وأعظم حزني أن خطبك بعده مصائب شتى لم تقع وخطوب

سيطرحك الإنسان خارج داره إذا لم يكن فيك العشية طيب

أيسارك يا أخت الرياحين مفجع وموتك يا بنت الربيع رهيب

ولكنها الدنيا ولكنه القضا وهذا لعمري مثل تلك غريب.